

التأصيل النظري للفعل التواصلي عند الفيلسوف الألماني
يورغن هابرماس

*Theoretical rooting of the communicative act of the
German philosopher Jurgen Habermas*

طارق هابة^{1*} ، عبد الكريم شين²

¹ جامعة الوادي (الجزائر)، haba-tarek@univ-eloued.dz

² جامعة الوادي (الجزائر)، chine-abdelkrim@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2023/06/30

تاريخ القبول: 2023/05/11

تاريخ الإستلام: 2023/03/29

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى التعرف على أهم الإسهامات الفكرية والعلمية التي ساعدت في التأصيل النظري للفعل التواصلي عند يورغن هابرماس من خلال التركيز على مختلف النظريات الكلاسيكية - خاصة الاجتماعية والفلسفية والنقدية - التي استمد منها الفيلسوف الألماني أفكاره في دراسة الفعل الاتصالي، لا سيما اللغة والعقل الآداتي. كما سنحاول في هذه الورقة البحثية الحديث على أثر مدرسة فرانكفورت النقدية على هذه النظرية ، وأهم الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية .

الكلمات المفتاحية: التأصيل النظري ، الفعل التواصلي ، يورغن هابرماس ، مدرسة فرانكفورت ، العقل الآداتي .

* المؤلف المرسل

Abstract

This intervention aims to identify the most important intellectual and scientific contributions that helped in the theoretical rooting of the communicative act of the German philosopher Jürgen Habermas by focusing on the various classical theories, especially social, philosophical and critical, from which the German philosopher derived his ideas in the study of the communicative act, especially in the aspect of language and the instrumental mind. We will also try, in this intervention, to talk about the impact of the Frankfurt School of Criticism on this theory, and the most important criticisms leveled against this theory

Keywords: *theoretical rooting, communicative action, Jürgen Habermas, Frankfurt School, instrumental reason.*

مقدمة

يعتبر الفرد والمجتمع هما الوسيلتان الرئيسيتان لبناء العلاقات الاجتماعية، إنها مفاهيم مترابطة ولا تنفصل. إنهما يكملان بعضهما البعض وهما سبب وجودهما، فلا يمكن لأي شخص أن يعيش ويتواصل ويتفاعل مع الآخرين إلا مع المجموعات التي يعيش معها ويتعلم منها ، فالسلوك التواصلي من أهم الموضوعات التي ما زالت تشغل الفكر الإنساني، نظراً لكون التواصل البشري ظاهرة قديمة قدم البشر ، فقد بدأت هذه الظاهرة مع البشر ولا تزال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً به الى يومنا هذا ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو حاجة الإنسان إلى الارتباط بعلاقات التفاهم والتواصل والمشاركة والتعايش مع أعضاء المجتمع الآخرين الذين يعيش معهم.

لقد حاول العديد من الفلاسفة والمفكرين دراسة التواصل والتعرف على الأبعاد والاسس التي تنظم سير هذه العملية ونجاحها ولعل من أبرز هؤلاء الفلاسفة والباحثين نجد الفيلسوف الألماني هابرماس الذي يعتبر التواصل أكثر من رمز ، فهو التواصل مع الحداثة والتقنية ، والتواصل بين الأفراد ، والتواصل بين الأطر والمفاهيم ، لذلك يؤكد هابرماس بأن مهمة ترسيخ عقلانية الاتصال تبدأ من النظرية الفلسفية وتنتهي بالنظرية السياسية، حيث تعتبر اللغة عنصراً أساسياً فيها ، ويعد هابرماس أحد أهم ممثلي مدرسة فرانكفورت في جيلها الثاني ، فهو يقوم بالوظيفة النقدية للفلسفة من خلال انتقاد الوضعية والتكنولوجيا والمادية التاريخية.

لقد كان يورغن هابرماس أحد اكبر المهتمين بتأثير اللغة على المجتمع ومكوناته وبالأخص الفرد الذي حاول دراسته وتخليط الضوء عليه من خلال دراسته للفعل التواصلي وماله من اثر كبير في تطور المجتمع واعتمدها هابرماس في نظريته على العديد من التوجهات الفكرية سواء كانت فلسفية أو أدبية أو إقتصادية أو حتى اجتماعية هذه الأخير كان لها الأثر الأكبر والباع الكبير في تطويرها لنظرية الفعل التواصلي ، ومن هذا المنطلق نطرح التساؤل الرئيسي

التالي: من هو الفيلسوف يورغن هابرماس ؟ وما هي أبرز المدارس النظرية الكلاسيكية التي إستند عليها في تأصيل نظرية الفعل التواصلي ؟

I. يورغن هابرماس حياته ونشأته :

ولد هابرماس بمدينة دوسلدورف عام 1929 وترعرع في كنف أسرة ألمانية من الطبقة المتوسطة تأقلمت مع النظام النازي دون انتقاده ودون تأييده تأييدا فاعلا تبلورت آرائها السياسية الخاصة للمرة الأولى عام 1945 عندما كان في السادسة عشرة من عمره انضم إلى حركة شباب هتلر وبعد الحرب عندما شاهد الأفلام التسجيلية عن محرقة اليهود وتبع وقائع تفتحت عيناه على الحقيقة المروعة لمعسكر اعتقال أوشفيتس والممدى الكامل الكارثة الأخلاقية الجمعية للحقبة النازية، درس الفلسفة في شبابه في جوتنجن وزيوريخ وبون ، ولم يكن راديكاليا في الفترة ما بين 1949 و 1953. وفي عام 1954 حصل هابرماس على درجة الدكتوراه بأطروحة عن الفيلسوف الألماني المثالي فريدريش شيلينج وبعد ذلك التفت الى اعمال هربرت ماركوزه والأعمال المبكرة لكارل ماركس وبعدها بعامين أمسى أول مساعد أبحاث للفيلسوف تيودور أدورنو بمعهد البحث الاجتماعي في فرانكفورت (فينليسون، 2015).

ولكن بسبب خلاف بين الاثنين على أطروحته ،بالإضافة إلى إعتقاده الشخصي أن مدرسة فرانكفورت كانت قد أصبحت مشلولة بالشكوكية والازدراء السياسي للثقافة الحديثة ، أنهى تأهيله في العلوم السياسية في جامعة ماربورج إذ تتلمذ على يد الماركسي ولفجانج ابيندروث ، وفي سنة 1961 أصبح أستاذا في جامعة برج ، وفي عام 1964 عاد الى مدرسة فرانكفورت من قبل أدورنو لتولي كرسي هوركهايمر في مجال الفلسفة وعلم الاجتماع (الدليمي ع.، 2016، الصفحات 58-59) ، وعمل في عدة جامعات ومراكز بحث حتى تقاعده في عام 1994 (هابرماس، 2020)، وتنقسم أعمال هابرماس إلى خمسة برامج بحثية هي كالتالي (فينليسون، 2015):

- النظرية البرجماتية للمعنى
 - النظرية العقلانية التواصلية -
 - برنامج النظرية الاجتماعية
 - برنامج أخلاقيات الخطاب
- برنامج النظرية الديمقراطية والقانونية أو النظرية السياسية .

II- مفهوم الفعل التواصل في عند هابرماس :

يعرف هابرماس الفعل التواصل بأنه التفاعل بين شخصين على الأقل، قادرين على الكلام والفعل ويؤسساني علاقات بين شخصية حيث يهدف الفاعلون إلى الوصول إلى فهم المشترك وجمعي مع تنظيم أعمالهم من خلال النقاش العقلاني ثم التعاون بدلا من الفعل الاستراتيجي للوصول إلى أهدافهم ويكون للغة هنا مكانه بارزه في النموذج الفعل التواصل (ملاكوي، 2017)

إن "الفعل التواصل" يتمثل بالربط بين مستويات العمل الخاصة بالفاعلين المختلفين وذلك عن طريق استخدام القوة المحرصة عقليا، هذه القوة المتنوعة بالضرورة في أفعال النطق اللغوية، ويضاف إلى ذلك أن "الفعل التواصل" لا يمكن أن نستبدل به ممارسات من نوعها يكن السياق والظروف ، فعملية التفاهم اللغوي لا يمكن أن نحل محلها كيفما شئنا آليات أخرى لتنسيق الأعمال (حاجة، 2010).

إن الفعل التواصل في عند هابرماس، هو "ذلك التفاعل المصاغ بواسطة الرموز، إنه يخضع لضرورة للمعايير المعمول بها والتي تحدد تطلعات السلوكيات المتبادلة بحيث يتعين أن تكون مفهومة ومعترفا بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل (بومير، 2010).

ويحدد هابرماس الأفعال التواصلية على النحو التالي هي تلك الأفعال التي تكون فيها مستويات الفعل بالنسبة للفاعلين المنتمين إلى العملية التواصلية غير مرتبطة بحاجات السياسية المرتبطة بأفعال التفاهم ولا تفاهم بدون لغة وهذا ما

يبرر الكلام المهتمين بعمر بن عن المنعطف اللسان لديه والذي يشير إليه هو بنفسه ، وهو ما ارتفع الى ادخال لغتك عامل لفهم العلاقات التواصلية لتعزيز تصورها للفعل التواصل من اجل فهم افضل للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع ذهب الى أن الفعل التواصل يتميز عن غيره من الافعال الاخرى بأنه لا يسعى للبحث عن الوسائل التي تمكنه من التأثير في الغير بل يبحث عن كيفية التوصل الى تفاهم معه وتوافق متبادل دون ما اكراه او قسر كيفما كان نوعهما (الدليعي ع.، 2019).

لقد أراد "هابرماس" ربط الهيرمينوطيقا بالتواصل، ومن ثم فإنه يتساءل بلغة هيدجرية: كيف يكون الفهم بين الذات المتحدث و الفاعلة ممكن ؟ ويقصد بتحليله لإمكان الفهم توضيح الأبنية العامة للفعل الاجتماعي التواصل، و من ثم يقرر أن الهيرمينوطيقا تختلف عن علم اللغة، فعلم اللغة لا يهتم بالقدرة التواصلية، نعني قدرة المتحدثين على المشاركة في التواصل اليومي عن طريق الفهم و الكلام إن علم اللغة يحصر نفسه في القدرة اللغوية بالمعنى الضيق لهذه الكلمة، إنه يهتم بنسق القواعد التي بناء عليها تكون الجملة صحيحة من الناحية النحوية، إن الهيرمينوطيقا ينبغي أن تهتم-من وجهة نظر "هابرماس"- بالخبرات الأساسية للمتحدثين الذين لديهم القدرة على التواصل اللغوي. إن الخلاف الأساسي بين "هابرماس" و "هيدجر" يكمن في الإجابة عن هذا التساؤل: هل من الممكن أن "نجاوز" الفكر و الحوار في اللغة العادية إلى نظرية التواصل التي يمكن أن تقدم لنا بصورة تلقائية أساسا معياريا للنقد ؟. إن مشروع "هابرماس" يركز على إمكان تقديم تفسير تواصلي يجاوز الهيرمينوطيقا الخالصة (حاجة، 2010).

ويقوم المفكر الألماني كل بحث في المجتمع على فحص الممارسات التواصلية، بل ويجعل منها منتجةً للاجتماعي، وهو ضرب من الاجتهاد من أجل مفارقة مسلمات "النظرية النقدية" كما تصوّرها أدورنو وهوركهايمر، يشتغل هابرماس هنا ضمن براديغم معرفي لم تتحرك في أفقه "مدرسة فرانكفورت"، فيعتمد براديغم اللغة مقابل براديغم الوعي، حيث يرى أن ما لا يمكن إسقاطه من

كلّ تمثّل للمجتمع هو البعد التواصلي، وهذا الأخير يقوم دائماً على عقلانية تنتجها مصالحٌ بشكل عفويٍّ ودائم، بل إنّ مفهوم العقلانية ذاته يقيمه على التواصل، فيعرّفها بوصفها "استعداداً خاصاً بذوات قادرة على الكلام والفعل." (حسن ش.، 2021)، ويعتبر "هابرماس" أن اللغة تؤسس فعل التواصل الهادف إلى الفهم، أي فهم النظام العقلاني ضمن نسق اجتماعي و سياسي لا يهملش ويستبعد أحداً مع ضرورة الكشف عن الأخلاق الكلية التي يرمي إليها التواصل فإنه من الجانب الوظيفي للتخاطب يقوم النشاط التواصلي على نقل و تجديد المعرفة الثقافية ومن وجهة نظر تنسيق الفعل، فإنه يقوم بوظائف الدمج الاجتماعي، و خلق الوحدة أما من زاوية التنشئة فإن النشاط التواصلي يثبت هوية الفرد و يؤسسها. (1978، (1)).

كما سعى هابرماس إلى ما أسماه بفلسفة اللغة من أجل تطور الأساس النظري الذي تقوم عليه النظرية النقدية عن طريق ثلاث مراحل: (حامد، 2018)

- الدعوة إلى التحرر عن طريق فلسفة الوعي
 - لا بد ان يقوم التواصل والتفاعل على أساس عقلائي
 - تتجسد العقلانية في وجود نظام اجتماعي الديمقراطي يشمل الجميع ولا يهدف الى الهيمنة بقدر ما يقوم على أسس التواصل والتفاهم
- وفي النهاية، يوجد دائماً عنصر تواصلي لا يمكن تقويضه وينبغي للمعرفة أن تدافع عنه لبناء بقية المنظومة الاجتماعية نظرياً، حيث يقول هابرماس في هذا الصدد: "نحتاج إلى نظرية في الفعل التواصلي إذ ما أردنا أن نستأنف على نحو مناسب إشكالية العقلنة الاجتماعية، تلك التي تمّ استبعادها بشكل واسع من دائرة النقاش السوسيولوجي المختصّ منذ ماكس فير". (حسن ش.، 2021)

إن نظرية التواصل للفيلسوف المعاصر الألماني يورغن هابرماس (1984-1987) هي نظرية فاعل تبحث في عمق الوعي وهي تتويج لمخاض طويلة في ألمانيا خاصة وأوروبا عامة جذورها كثيراً ما يصعب مهمة شرحها فلسفياً من جوانبها كافة فالعمل هذا يحتاج الى جهد كبير (الدليمي ع.، 2019)

يحمل التواصل عند هابرماس أكثر من دلالة ، فهو تواصل مع الحداثة ، و هو تواصل بين الأفراد ، وهو تواصل بين المفاهيم ، ولذلك أخذ هابرماس على عاتقه مهمة التأسيس للعقلانية التواصلية التي تبدأ كنظرية فلسفية ، وتنتهي كنظرية سياسية و يعتبر هابرماس أهم ممثل لمدرسة فرانكفورت في جيلها الثاني حيث يركز على الوظيفة النقدية للفلسفة من أجل نقد الوضعية ، و نقد التقنية فالتقنية عملت للسيطرة على الطبيعة والإنسان ولذلك فإن العقل التقني الأداتي هو عقل استبدادي في نظر هابرماس ..إن عالم الحضارة الصناعية المتقدمة هو عالم كلي استبدادي يملك القدرة على تحدي أي محاولة لمعارضته ونفيه فحسب ، ولا على تميع وتذويب ودمج القوى الاجتماعية التي يمكن أن تعارضه فحسب ، بل على استنفار كل طاقات الإنسان الجسدية والروحية وجميع القوى الاجتماعية ، (التومي، 2013) ، و نقد المادية التاريخية أيضا ، لذلك فالفعل التواصلية عند هابرماس هو فعل نقدي ، وفلسفي ، و لغوي ، و سياسي قوامه الحوار الأخلاقي و العقلاني و البرهاني و الهادف ضمن فضاء عمومي حر ، ومن هذا المنطلق تعتبر العقلانية التواصلية بديلا حقيقيا ، توفر شروط التفاعل والحوار الجاد والهادف ، بغية تأهيل الإنسان لحماية عالمه من هدير الاداتية ، على نحو يعيد التوازن بين عالمه المعيش وعالم الانساق (2022) ، وهذا هو التحول الذي عرفته الفلسفة المعاصرة و الذي يطلق عليه هابرماس الإنتقال من فلسفة الوعي إلى فلسفة التواصل ، وإلى جانب التداولية ودورها في صياغة هذا المنعطف اللغوي " الذي انتقل من فلسفة المعرفة و الايديولوجيا إلى فلسفة التواصل ، أو بما يصطلح عليه بالعقلانية التواصلية التي نجد منطلقاتها في اللغة و هي عقلانية بديلة للعقلانية الأداتية " .

III. مراحل الفعل التواصلية عند هابرماس : إن الفعل التواصلية حسب هابرماس يمر بثلاثة مراحل رئيسية يمكن تلخيصها في النقاط التالية :
(المحداوي، 2005)

1 - مرحلة التفاعل الذي تتوسطه رموز: وهذه المرحلة تقوم على فاعليتين الأولى القول والثانية الفعل، فعن طريق الرمز التواصلية (القول) يتم التعبير عن رغبة في سلوك ما وعن طريق النية في تحقيق هذا القول (الفعل) يتم تلبية تلك الرغبة، ومدلول القول والفعل يحدد كل منهما الآخر. ومن خلال هذه التبادلية في الدلالة يمكن ان يشكل الحوار البينذاتي.

2- مرحلة الخطاب المتميز بالنسبة لمضمونه: وفي هذه المرحلة ينفصل القول عن الفعل. فلا يمكن الاستناد إليهما بالنسبة للشخص الفاعل فقط، بل يدخل هنا موقف الشخص الملاحظ او المشارك في الحوار، وهنا يمكن التبادل في التصورات بين المشاركين في الحوار لذلك يمكن التنسيق بين رغبتين متبادلتين في السلوك، بحيث يشكلان نظاما من الدوافع المشتركة والمتكاملة، وهنا يتشكل الدور الاجتماعي. وفي هذه المرحلة، تتميز الأفعال عن المعايير أفعال الذوات ومعايير البينذاتية.

3- مرحلة الخطاب البرهاني (الحجائي): وهنا تتشكل مقتضيات الصلاحية التي ترتبط بجانبين: الأول أفعال اللغة المنجزة بالمرحلة الأولى والثاني معالجة افتراضات المعايير بحيث تكون قابلة لأن تكون شرعية أو غير شرعية.

IV. المدارس الفكرية المساهمة في بناء نظرية الفعل التواصلية عند هابرماس:

كان لتخصص علم الاجتماع الاثر الكبير في مشروع هابرماس الفلسفي؛ لارتباطه بمشكلة العقلانية والمشكلات التي نجمت عن تحديث المجتمع، وأهمية دور النظرية الاجتماعية في تحولات القيم الموجهة لمؤسسات المجتمع من اقتصادية وسياسية واجتماعية. كما أن تأسيس نظرية للمجتمع تطلب منه إعادة بناء تاريخي للنظريات الاجتماعية الكلاسيكية، ومن هنا كان اهتمامه بعلماء الاجتماع أمثال ماكس فيبر ودور كايم وتالكوت بارسونز، والتفاته بوجه خاص لنظرية الفعل عند هذا الأخير الذي اتخذ منه نموذجاً وشرع في العمل على صياغة

نظريته في الفعل التواصلي (2210) ، ومن هذا المنطلق سوف نحدد أبرز المدارس التي ساهمت في البناء الفكري لنظرية الفعل التواصلي :

1. المدرسة النقدية: ترتبط النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت أوثق ارتباط بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي الذي أسسته في سنة 1923 النخبة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد والنفس والنقد الأدبي والجمال المنحدرين من أصول يهودية وقد حددوا وضعه وهدفه منذ البداية بحيث يكون محدن حرا غير مقيد بالنظم الجامعية والأكاديمية (مكاوي، 2018) ، وبناء على ذلك أرست المدرسة منظورا جديدا يقوم على فلسفة إجتماعية ترى ذاتها كنظرية نقدية ، فعوض أن تنخرط بالانتماء الى المجتمع وتسلم بنظمه ، لم تتردد عن نقده والبقاء خارجه ، لتقوم بدورها كاملا في النقد كاشفة عن مصادر العطب الذي يطالبه وتتوجه موضوعيا نحو تغييره (مصدق، 2005) .

وقد تتبع بعض ممثلي النظرية النقدية وبخاصة أدورنو وهوركهايمر تأثير ظاهرة الاغتراب والتشيؤ على الفن والإبداع ، وبينوا كيف انحط العمل الفني في ظل المجتمع الصناعي وظروف صناعة الثقافة وعملائها واجهزه انتاجها والإعلام عنها ، الى حضيض السلعة في سوق الاستهلاك والمزايدة مما افقده أصالته وشموله وفعله المباشر في القلوب والعقول، بحيث اصبح مجرد شيء يقصد بها البحث الاجتماعي الاستمتاع السطحي والتسلية في أوقات الفراغ ولم يبق أثر العلاقة الحية بالعمل الفني ولا للفهم المباشر وظيفته بوصفه تعبيرا عما كان يسمى يوما باسم الحقيقة على حد قول هوركهايمر في كتابه نقد العقل الأداتي (مكاوي، 2018).

استطاع كل من أدورنو وهوركهايمر في كتابهما جدل التنوير أن يطورا فلسفة للتاريخ معاكسه لنموذج صراع الطبقات الذي عرضه ماركس في المادية التاريخية وينطلق أدورنو وهوركهايمر من من فكرة أن سيرورة الحضارية للإنسانية هي وانطلاقا من أصولها متميزة بسيطرة الانسان على الطبيعة و سيطرة الانسان على الانسان ، وتكمن القوة النقدية في الرسالة التي واجهها كل من أدورنو

وهوركه يامر عبر شذراتهم في هذا العرض للديالكتيك التاريخي للعقل، الذي أخذ شكلاً خطأ عكسياً للتقدم حيث ما استطعنا عقلياً أن ننتظر تقدم النوع الإنساني والتحرر من الخوف الغريزي فإن العقلية الملازم للأسطورة وسقوط العقل الحديث في صورته جديدة من الأسطورة تنخرطاني في استمرارية تاريخية العنف والسيطرة (علوش، 2013)

ويقصد فلاسفة النظرية النقدية العقل الأداتي أو العقلانية التقنية نوعاً من التفكير السائد في المجتمع الصناعي الحديث يطلقون عليه كذلك اسم العقل الذاتي والتقني والشكل ويصفونه على لسان ماركوز في كتابه الشهير بالتفكير بالبعد الواحد ويتضح هذا التفكير باجل صورته في أسلوب التفكير العلمي والتقني كما تعبر عنه الفلسفة الوضعية بأشكالها المعاصرة والفلسفة البراجماتية العملية (مكاوي، 2018).

إن سبب انتقاد هابرماس للعقل الأداتي هو نظريته للإنسان باعتباره يشبه الأجزاء المادية والطبيعية، ولهذا اقترح ما سماه بالعقل التواصل وهو عقل يرتبط بالحدثة ينتهجها وتنتهجها، ويستفيد من كل المعطيات العقل النقدي ويتجاوز انتكاسات العقل الأداتي، وطرح نفسه بديلاً للممارسات العقلية الاجرائية منها التي تتمحور حول العقلانية التقنية بزعتها العلمية الوضعية والعقلية الخالصة التي تمركزت حول ذاتها في الميتافيزيقا (بارة، 2008).

2. المدرسة المادية : إن المادية التاريخية حسب كارل ماركس حتى وإن لم يستخدم ماركس مصطلح "المادية التاريخية" ليصف نظريته، فقد ظهر المصطلح لأول مرة في كتاب فريدريك إنجلز "الاشتراكية: الطوباوية والعلمية" في عام 1880، تبحث عن أسباب التطورات والتغيرات في المجتمع البشري من خلال الوسائل التي ينتج بها البشر عامةً ضروريات الحياة، وتفترض أن الطبقات الاجتماعية والعلاقة بينها إلى جانب الهياكل السياسية وأساليب التفكير في المجتمع، تستند إلى النشاط الاقتصادي المعاصر وتعكسه، منذ زمن ماركس عُدَّت النظرية ووُسِّعت من قبل الكتاب الماركسيين، ولها الآن العديد من الأوجه الماركسية وغير الماركسية،

ويحتاج الماركسيون بأن المادية التاريخية هي المقاربة العلمية لدراسة التاريخ. (بن عبد الله)، فقد أصبح الجزء المبدع من أعمال ماركس عند هابرماس مدفوناً تحت خرسانة النزعة الادائية أو الوضعية ويرى هابرماس أن مسؤولية ذلك تقع على عاتق ماركس نفسه وعلى تركيزه تركيزاً شديداً على العمل باعتباره الخاصية المميزة للبشر وعلى الرغم من هابرماس يرى في العمل والعقل الادائي بعدين مهمين للحياة الانسانية فإنه يذهب إلى أن العمل المنظم اجتماعياً ليس كافياً وحده لتحديد وضع البشر بل اللغة والتواصل هما الحاسمان في الواقع (كريب، 1999).

3. المدرسة العقلانية: خصص هابرماس لماركس فيبر أكثر من مائة صفحة في كتابه "نظرية الفعل التواصلي"، حيث اهتم هابرماس أساساً بسوسيولوجيا فيبر، انطلاقاً من طرح وتحليل مسألة وصيرورة عقلانية/عقلنة للعلم الحديث والمعاصر، فهذه العملية التاريخية والمعقدة والممتدة التي بدأت وتعمقت في الغرب، وامتدت إلى دول العالم، تحمل في طياتها عناصر الضعف والسلب وعناصر القوة والإيجاب: فهي من جهة وضعت الإنسان في مقام القدرة والسيطرة والكشف (نزع السحر عن العالم)، ومن جهة أخرى حولت الفرد إلى أسير وأداة عقله نفسه، ومن هنا جاءت نزعة التشاؤم والسلبية إزاء مسيرة الحضارة الغربية، كما تتراءى في سوسيولوجيا فيبر مقابل تعمقها في فلسفات معاصرة، مثل نيتشه وفوكو وهيدغر وليوطار، ولتجاوز هذه النزعة العدمية والتشاؤمية، يعيد هابرماس قراءة وتأويل سوسيولوجيا فيبر: ونقطة انطلاقه هي إبرازه لخاصية المعنى والقصد للفعل الإنساني كما يؤكد هابرماس، فليس كل فعل إنساني هو نشاط جدير بالاهتمام السوسيولوجي باستثناء ما له معنى مرتبطاً بقصد الفاعل صريحاً أو ضمناً. وبالرغم من وقوع هذا التحديد الفيبري للفعل الاجتماعي مقترباً بالمعنى والقصد في دائرة فلسفة الوعي (الزيباري)

4. المدرسة الوظيفية: تعد هذا النظرية خلفية لكثير من النظريات المتعلقة بالسير العام للمجتمع، ومسلمته الأساسية هي النظر إلى المجتمع على أنه كل تنظيمي تفسر مختلف عناصره بالوظيفة التي تؤديها، يهتم هذا البراديغم بالطريقة

التي تؤثر بها بعض الظواهر في سير النظام الاجتماعي (سراي، 2018)، ويعتبر بارنسونز: (1979-1902) Parsons talcott أحد العلماء الذين لهم تأثير قوي على هابرماس في معالجته لمنهجيات التأويل، فبارنسونز Parsons يقوم بتشخيص العوامل الخارجية للمجتمع كالإقتصاد والسياسة واقتحامهما للعالم المعيش، وهذا ما يهتم هابرماس حيث يجب الانتقال في ميدان السوسيولوجيا من البحث عن الأدوات والوسائل والمناهج المستخدمة لدراسة العالم الاجتماعي إلى كيفية عمل العالم الاجتماعي نفسه. وهذا ما يسميه غاستون باشلار " (1884 - 1962) Gaston Bachelard بالعائق الإبيستمولوجي و القطيعة البيستمولوجية، أي التركيز على العالم بدلاً من التركيز على الموضوع، وبالتالي يصبح المجتمع هو نتاج للتفاعل الانساني بين الذوات و العالم الخارجي معا. (خن، 2018).

واعتبر هابرماس أن إنجازَه الرئيسي في تطوير مفهوم ونظرية العقلانية التواصلية، الذي يميزه عن التقليد العقلاني بتحديد العقلانية في بناء الاتصال اللغوي الشخصي، وتقدم هذه النظرية الاجتماعية أهداف الانعتاق أو التحرر الإنساني، بينما يبقى الإطار الأخلاقي الشامل. هذا الإطار يستند إلى حجة تدعى البرجماتية الشاملة - universal pragmatics كل الأفعال الخطابية لها نهاية متأصلة — وهي هدف الفهم المتبادل، وأن البشر يمتلكون القدرة التواصلية لجلب مثل هذا الفهم. بنى هابرماس إطاراً خارج فلسفة الفعل الخطابي لودفيج ويتجينستين Wittgenstein، وأوستن، وجون سيرل Searle، والنظرية الاجتماعية للعرف الثقافي interactional constitution للعقل لجورج هيربرت ميد، ونظريات التنمية الأخلاقية لجين بياجيه Piaget ولورانس كولبرج Kohlberg، وأخلاقيات الخطاب لكارل هايدلبرغ - اوتو آبل Heidelberg colleague Karl-Otto Apel (الدليبي ع.، 2016)

كما تأثر هابرماس بالكثير من علماء الاجتماع الأمريكيين، ومن بينهم السوسيولوجي هيربرت ميد الذي أخذ عنه فكرة دور الآخر في تشكل الأنا. إذ يعتبر ميد أن الذات تنشأ وتتطور مجتمعياً من خلال عملية التفاعل الاجتماعي؛ إذ يبدأ

الفرد بالتعرف على ذاته من خلال آراء الآخرين فيه، ومنذ السنوات المبكرة من حياته وتحديدًا من خلال عملية اللعب التي يقوم بها، محاولًا تقمص العديد من الأدوار المختلفة؛ فمسألة القيام بدور ما لا يتطلب معرفة الدور فقط، بل ما يتوقعه الآخرون من هذا الدور أيضًا. (خن، 2018)

ويؤكد هابرماس في الجزء الأول من كتابه نظرية الفعل التواصلي إن نظريته هذه ليست مثل نظرية أي أنها ليست نظرية لتحليل الأنظمة النظرية، وإنما هي بداية لنظرية اجتماعية مهمة بالتحقق من صحة معاييرها النقدية الخاصة بها فعلى الرغم من وجود نموذج ماركس في الإنتاج والعمل الاجتماعي الذي تمحورت حول نظرية مركز الاجتماعية أسسها للفعل التواصلي واستبدل نموذج التقليدي للعقلانية (ملاكوي، 2017)، إن عملية البحث عن الفعل الاجتماعي حسب هابرماس هي نفسها عملية الفعل التواصلي، الذي لا يبحث عن مجرد النجاح الشخصي فقط، بل تحقيق التفاهم عن طريق الحوار (علوش، 2013)

٧. الأبعاد الفكرية للفعل التواصلي: لنظرية الفعل التواصلي لهابرماس أبعاد وامتدادات داخل الحقل الاجتماعي والسياسي والأخلاق هي: (الزيباري)

- **البعد الاجتماعي:** الفعل التواصلي صاغه هابرماس لمحاولة بلورة إجماع يعبر عن المساواة داخل فضاء عمومي ينتزع فيه الفرد جانبًا من ذاتيته ويدمجها في مجهود جماعي قائم على التواصل والتفاهم، وهذا التفاهم لا يمكن تحقيقه إلا من خلال اتفاق مؤسس على أساس عقلاني.
- **كما جاء الفعل التواصلي لتجاوز العلاقات الاجتماعية القائمة على الإكراه والهيمنة (الفعل الاستراتيجي) لبلورة علاقات اجتماعية سليمة، قائمة على الحوار والنقاش في أفق تحقيق إجماع.**
- **البعد الأخلاقي:** بعد أفول الأخلاق الدينية والتقليدية في الغرب، جاءت أخلاقيات النقاش لتطرح البديل؛ فإخضاع الآراء والقناعات والاختيارات

للمناقشة شرط لتحقيق الموضوعية والنزاهة والاتفاق، وبذلك يصبح في الآن شرطاً لاجتناب العنف اللفظي والمادي والحروب والاستبداد.

■ **البعد السياسي:** لتجاوز أزمات العالم المعاصر ونواقص الديمقراطية التمثيلية، يسعى هابرماس إلى تأسيس ديمقراطية على أسس جماعية مثالية للتواصل، خالية من أية هيمنة أو سيطرة، وي طرح مفهوم التشاور الذي يعتبره جوهرية في ديمقراطيته التشاورية، بحيث يتشكل الرأي العام والإرادة السياسية للمواطنين في المجتمع الديمقراطي، لأن الهدف الأسمى للديمقراطية التشاورية ليس الدفاع عن المصالح الشخصية لأعضاء الجماعة؛ وإنما هو الدفاع عن المصالح العامة.

VI. أهمية نظرية الفعل التواصلي: قبل الخوض في تحليل هذا العنصر، لا بد من الإشارة بداية إلى أن هناك إشكالا مفهوماً ولغوياً بين مفهوم "تواصلي" و"اتصالي"، لكن الذي يبدو واضحاً وجلياً هو أن مفهوم التواصل أشمل ويشمل مفهوم الاتصال (سماح، 2011)، لأن الأمر هنا يتعلق بإرادة المشاركة (الدوات) وليس بالميكانيزمات الآلية للاتصال كما هو الحال في مجال الإعلام.

فهابرماس يرفض الخلط الشائع بين الإنسان ككائن اتصالي وككائن تواصلي، لذلك يميز الإنسان بخاصية الوعي وإفراده والتعقل. هذه الأخيرة التي تحاول آليات الاتصال في مجال الاعلام والدعاية القضاء عليها، مؤكداً أن الفلسفة الغربية بأسرها قامت على مبدأ التواصل بين العقل والعالم، والاستمرارية بين مختلف المعارف والرؤى وليس الانفصال والقطيعة. لذلك ينظر إلى التواصل في المشروع الحدائي على أنه تغلغل عبر الذاكرة وعبر التاريخ. وهذا ما يفيد في بلوغ الأفق البعيدة للثقافة والمجتمع". (سماح، 2011)، فإنه إذا كان يان باتوكا Yan Patocka قد أشار إلى أن الإنسان كائن إيتيقي، وأن الناس ليسوا هم من يبتدع الإتيقا بل إن

الإتيقا هي من يحدد كينونة الإنسان وبخاصة تلك المتعلقة بحقائقه الوجودية الأبدية كالموت والعدم، فإن هابرماس يعتقد بأن الإنسان كائن إتيقي تواصل ي انطلاقا من أن التواصل بمختلف تجلياته المادية والدلالية هو رمز دال من رموز المرحلة المعاصرة، ويكفي أن العالم المادي ذاته صار قرية صغيرة فكيف إذا تعلق الأمر بما هو نظري وقابل للتجريد. ذلك أن مفهوم التواصل "يلا مس حقولا معرفية متعددة كالسوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا، السيميائيات، التداولية، الألسنية، النظرية النقدية ومبحثها الهام إتيقا المناقشة" (هابرماس، 2010). ويقول هابرماس : " لقد أصبح التواصل الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فقد كل مرجعياته ، ولنتواصل بالأدوات والتقنيات التي تضعف التواصل نفسه، هذا هو لب التناقض الذي وضعنا فيه. بحيث التجأت المجتمعات الحديثة إلى إعلاء القيمة المركزية للتواصل لمعالجة المشاكل التي نتجت عن خياراتها الأساسية وعقدت البشرية الامل على عصر الاتصال" (حسن أ.، 2012).

فالسلطة الاتصالية لدى هابرماس " تمكن من تكريس الإرادة الشعبية التي يعتبرها تصورا معياريا للفضاء العمومي. وبالتالي فهابرماس يؤكد على "الجانب الاتصالي لأفراد المجتمع، وسيطرة الاتصال هي تكريس للإرادة الشعبية والتواصل حسب نظريته النقدية التواصلية هو الذي يؤدي عن طريق الحوار والنقاش العقلاني الحر إلى حقيقة مشتركة". (عياش، 2015).

VII. أهم الانتقادات الموجهة لنظرية الفعل التواصل ي : هناك مجموعة من الانتقادات وجهت لنظرية الفعل التواصل ي نذكر أبرزها في النقاط التالية :

- نقد نيكلاس لوهمان لنظرية الفعل التواصل ي : غير بعيد عن الطرح الذي توقفنا عنده مع ليوطار، يقدم نيكلاس لوهمان (1927-1998) انطلاقا من

كتابه "الأنساق الاجتماعية" نقدا لنظرية التواصل عند هابرماس.. و يتمثل هذا النقد في اعتباره أن التواصل لا يجب أن ينبني على مبادئ أنطولوجية، كما أن التواصل يجب ألا يهدف إلى الإجماع، لأنه عبارة عن لعبة يقوم على الاختلاف بين المعلومة و التوصيل، و بالتالي "فالتواصل كإختلاف هو إبداع أما التواصل كإجماع فهو قتل للإبداع"، و يؤكد لوهمان على عكس هابرماس دائما أن التواصل يقوم على الصراع الذي يحافظ على مرونة النظام و قابليته المستمرة للتعلم. و يختزل لوهمان التواصل في كونه تفاعل لثلاث عناصر، و هي: الإخبار، الخبر أو المعلومة، و الفهم. و بالتالي فرغم أن الخبر واحد فإن عمليتي الإخبار و الفهم تختلفان من شخص إلى آخر، مما يجعل التواصل قائم على الاختلاف و ليس الإجماع. (كركوب، 2017)

- نقد جون فرنسوا ليوتار: انتقد ليوتار في كتابه ما بعد الحداثة بشدة العديد من النظريات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية التي حاولت تأكيد وجود نظرية شمولية، يمكن بواسطتها دراسة جميع أنماط المعرفة، بالإضافة إلى اهتمامه بالنزعة البراجماتية في مجال اللغة حيث تصور عدم وجود لعبة ميتالغوية، كما شكك أصحاب اتجاه ما بعد الحداثة بوجود أي سرد مرجعي سواء تعلق الأمر بالعلوم أم العقل أم بأي شيء آخر يدعي قدرته على ضمان الحقيقة (حامد، 2018)، ولقد قدم نقدا لنظرية الإجماع لدى هابرماس، التي تنبني في أساسها على نظرية الفعل التواصل. ويتمثل نقده في كتابين أساسيين، وهما "التنازع" و "حقبة ما بعد الحداثة". فإذا كانت نظرية الإجماع الهابرماسية تهدف إلى تحقيق إجماع مشترك بين المتخاطبين بصدد قضايا معينة تكون محطة نقاش و تداول، فإن ليوتار يؤكد على أن الاختلاف هو الذي ينتج الإبداع أما الإجماع فهو يقتله، ويقول ليوتار في هذا الصدد: "إن الاختلاف أقدر على الابتكار من الإجماع" و يضيف إلى ذلك قوله (ليوتار) بأن اختلاف الناس بحكم الطابع الإبداعي الذي يوجد تغيير المعنى، يفرز اقتضاعات أكثر جدوى من كلية الإجماع الذي تفضي إليه المناقشة" و المقصود بهذا القول أن ليوتار حاول

تجاوز النظرة الثابتة للتواصل عموماً و للإجماع بشكل خاص، و التي تفضي إلى الانغلاق و التقوقع، و ما يساهم في هذه الحالة هو اعتماد أخلاقيات المناقشة التي لا تقبل التحريف أو التغيير باعتبارها أخلاقيات كونية، و عوض ذلك يقر ليوتار أن الاختلاف هو أساس الإبداع داخل العملية التواصلية، (كركوب، 2017) ومن اهم انتقادات ليوتار لهابرماس أن نظريته ما هي إلا فلسفة أخرى في التاريخ أو نموذج سردي يحكي قصة تحرر البشرية ورقمها في تقدم أخلاقي . ويقسم ليوتارد النظريات العامة الي التاريخ نوعين : نوع يحكي التاريخ كتحرر تدريجي للانسانية كلها ، ونوع اخر يحكي التاريخ كزيادة في التفرد وتحرر الفرد من قيوده ، والماركسية الأرثوذكسية هي النوع الأول (منصور، 2015).

خاتمة

ونافلة القول إن الجذور الفكرية والنظرية للفعل التواصلية عند يورغن هابرماس ثقيلة ومتنوعة ،يصعب ربطها بأفكار محددة أو مدارس فكرية معينة فقد إستمد هابرماس أفكاره وأبحاثه المتعلقة بالفعل التواصلية من تحليله الفلسفي للغة والعقل الآدائي للإنسان ، كما إستند في نقد التقنية ونقد المادية التاريخية على انتمائه الفكري لمدرسة فرانكفورت النقدية فهابرماس عند تأصيله النظري للفعل التواصلية نهل من مناهل فكرية متعددة ومختلفة منها الاجتماعية والأخلاقية والأدبية وحتى السياسية والإقتصادية ، إذ تعتبر نظرية الفعل التواصلية ليورغن هابرماس من أبرز النظريات الاجتماعية المعاصرة التي حاولت تفسير التواصل البشري .

ويعد يورغن هابرماس نموذجاً للمفكر الديناميكي الذي يتعامل مع الحركات الاجتماعية والتاريخية والفلسفية ، بحجة أن النظريات تحتاج دائماً إلى إثبات عندما تحاول تطبيق نفسها على مجال أو آخر ، ونلاحظ أيضاً أن هابرماس يبني لنفسه إطار شامل للنظرية والفلسفة الاجتماعية للفعل التواصلية مستمد أفكاره من العديد من التقاليد الثقافية الفلسفية الرئيسية التي لعبت المدارس الفكرية

المختلفة دورًا مهمًا في تأسيس هذه النظرية وبنائها ، حيث من الواضح أنها مدين لها بأفكاره وكتاباته المختلفة خاصة، في مؤلفه العظيمين " التواصل والأخلاق " و "نظرية الفعل التواصلي" هذا الأخير يعتبر مرجع أساسي لهذه النظرية.

الإحالات والمراجع:

- (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 01 10 2022، من
<https://www.hindawi.org/books/29480383/3>
- (J), H. (1978). *Logique des sciences sociales*. paris: Ed Puf.
https://www.b-sociology.com/2019/04/pdf_12.html من الاسترداد (01 18 2022). تم الاسترداد من
 ابن ناصر حاجة. (2010). إشكالية التواصل والنقد الاجتماعي عند رواد مدرسة فرانكفورت -نموذج
 يورغن هابرماس -. رسالة ماجستير، ح. وهران، الجزائر: كلية العلوم الاجتماعية - جامعة
 وهران-.
- أبو النور حمدي أبو النور حسن. (2012). *بيروجين هابرماس (الأخلاق والتواصل)*. بيروت: التنوير
 للطباعة والنشر والتوزيع.
- أسماء حسين ملكاوي. (2017). *أخلاقيات التواصل في العصر الرقمي هابرماس أنموذجا*. بيروت:
 المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- أسماء حسين ملكاوي. (2017). *أخلاقيات التواصل في العصر الرقمي هابرماس أنموذجا*. بيروت:
 المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- أشرف حسن منصور. (1 12 2015). ما بعد الحداثة بين ليو تار و هابرماس 2022/03/11، 22:35.
 تاريخ الاسترداد 03 27 2022، من
http://post2modernisme.blogspot.com/2015/12/blog-post_97.html
- إليامين بن التومي. (2013). العقل التواصلي ليورغن هابرماس، ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها،
 صفحة 104.
- إيان كريب. (1999). *النظرية الاجتماعية من بارنسونز الى هابرماس*. (محمد حسين غلوم، المترجمون)
 الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
- بن عبد الله. (بلا تاريخ). *المادية التاريخية عند كارل ماركس*. تاريخ الاسترداد 01 21 2023
<https://elearn.univ-> تم الاسترداد من [tlemcen.dz](https://elearn.univ-tlemcen.dz) < resource < view
- جمال خن. (2018). إشكالية الحداثة والفعل الفلسفي في الفكر الغربي المعاصر يورغن هابرماس
 أنموذجا /طروحة دكتوراه، 30. الجزائر: قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة وهران
 2.
- جيمس جوردن فينليسون. (2015). *بيروجين هابرماس مقدمة قصيرة جدا*. (أحمد محمد الروبي،
 المترجمون) مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- حسن مصدق. (2005). *يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية*. المركز
 الثقافي العربي.
- خالد حامد. (2018). *مدخل الى علم الاجتماع (المجلد 3)*. الجزائر: جسور للنشر والتوزيع.
- رباب بن عياش. (2015). رمزية الفضاء العمومي الافتراضي في الجزائر (دراسة تحليلية سيميولوجية
 لعينة من المدونات وصفحات موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" (خلال الانتخابات الرئاسية
 أفريل 2014 – من 1 جانفي -30 ماي 2014). رسالة ماجستير. الجزائر: قسم الاتصال ، كلية
 علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر 3 .

- سعاد سراي. (2018). البراديج في علوم الاعلام والاتصال بين الضرورة المنهجية والصعوبات البحثية الاجرائية. مجلة علوم الانسان والمجتمع، صفحة 406.
- شوقي بن حسن. (2021, 05 21). نظرية الفعل التواصلي في متاهة هابرماس. تاريخ الاسترداد 21 01، 2023، من
- <https://www.alaraby.co.uk/culture/%22%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B9%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%A7%D8%B5%D9%84%D9%8A%22-%D9%81%D9%8A-%D9%85%D8%AA%D8%A7%D9%87%D>
- طاهر حسو الزبياري. (بلا تاريخ). النظرية السوسيولوجية المعاصرة.
- عبد الرزاق الدليمي. (2019). صناعة الإعلام العالمي المعاصر. دار اليازوري العلمية للنشر وتوزيع.
- عبد الرزاق محمد الدليمي. (2016). نظريات الاتصال في القرن الحادي والعشرين. الاردن: دار اليازوري للنشر والتوزيع.
- عبد العالي كركوب. (2017, 04 2017). نقد نظرية الفعل التواصلي . تاريخ الاسترداد 25 03، 2022، من مركز الدراسات والابحاث العلمانية في العالم العربي:
- [ac=2&https://www.ssrcaw.org/ar/print.art.asp?aid=553927](https://www.ssrcaw.org/ar/print.art.asp?aid=553927)
- عبد الغاني بارة. (2008). الهيرومنطقيا وفلسفة نحو عقل تأويلي (المجلد 1). لبنان: الدار العربية للعلوم.
- عبد الغفار مكاوي. (2018). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: تمهيد وتعقيب نقدي. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي سي آي سي.
- علي عبود المحداوي. (2005). الاشكالية السياسية للحداثة من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل (المجلد 1). بيروت: منشورات ضفاف.
- كمال بومنيير. (2010). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت (من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث) (المجلد 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- مالك سماح. (2011). نقد الخطاب الحدائي والمقاربة التواصلية عند يورغنهابرماس. رسالة ماجستير، 133. الجزائر : قسم الفلسفة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2.
- نور الدين علوش. (2013). الفلسفة الالمانية المعاصرة. الاردن: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- يورغن هابرماس. (2010). إتيفا المناقشة ومسألة الحقيقة (المجلد 1). (عمر مهيلل، المترجمون) الجزائر: منشورات الاختلاف، .
- يورغن هابرماس. (2020). نظرية الفعل التواصلي – عقلانية الفعل والعقلنة الاجتماعية. (فتحي المسكينى، المترجمون) بيروت: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية.